# من بلاغة الضحى
# فى
# تكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم

أ . د / مالك حسين الدسوقى النعيرى

عضو هيئة التدريس بكلية اللغة العربية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

صدق الله العظيم

وبلغ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

## تقديم

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا .

أرسله الله عز وجل إلى الناس كافة فهدى به من الضلالة ، وأغنى به الفاقة ، ووحد به من الشتات ، وجعله خاتم الرسل ، ورسالته خاتمة الرسالات ، وأصلى وأسلم على المبعوث للناس رحمة ، وعلينا ـ

نحن المسلمين – استجلاءها بكل همة ، جاءنا بالمحجة البيضاء التى لا يعشو ناظرها ، ولا تعتريها غمة ، وصلاة وسلاما على الأتقياء من أمته وهم آله ، وعلى الصفوة من الخلق وهم صحابته ، وعلى علماء الأمة وهم للدين دعاته .

وبعد ،،

فقد امتن الله سبحانه وتعالى على نبيه – محمد صلى الله عليه وسلم بأفضال كثيرة ، وعطاءات وفيرة ، فهو صاحب الكوثر المذى لا حد لفيضه : " إنا أعطيناك الكوثر " (١).

وهو صاحب الخلق العظيم ، وصدق الله العظيم فقد قال : " وإنك لعلى خلق عظيم " (٢).

وهو لسان العربية النابض فى قلب كل حى بقرآن كريم رزق به علم الأولين والآخرين ، ونقش على قلبه الكريم فكان بهذا التقدير والتعظيم سيد الأولين والآخرين : " وكان فضل الله عليم عظيما " (٣).

والمتأمل فى القرآن الكريم يجد أن تكريم الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قد فاق كل حد ، وجاوز أى تصور ، وكانت سورة الضحى واحدة من أمهات التكريم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودرة من لآلئ القرآن الكريم التى شرف الله سبحانه وتعالى بها المصطفى صلى الله عليه وسلم - حيث كانت خالصة له ، وهدية ربه عز وجل إليه .

وهذا ما دفعنى – وأنا عاجز عن إدراك معنى هذا التكريم – إلى التقرب من هذا الفيض لاستجلاء – بفضل الله عز وجل – بعض معانيه، والوقوف على شئ من دروب أنسه ، ومسالك وصاله .

---

(١) الكوثر ١ .
(٢) القلم ٤ .
(٣) النساء ١١٣ .

فكان البحث بعنوان :

## " من بلاغة الضحى فى تكريم المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم "

وقد أثرت أن يكون تناوله فى ثوب المنهج الكلى الذى يعتمد على النظرة الكلية للنص الكريم فى ضوء فصاحة الكلمة ، وبلاغة الجملة .

وهذا فى رأيى هو المنهج الأمثل فى استجلاء بعض أسرار الذكر الحكيم .

وأدعو الله عز وجل أن يمدنى والمسلمين بعونه ، وأن يرزقنا فقه كتابه ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم فهو نعم المولى ونعم النصير .

" ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير " (١).

" وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب " (٢).

## مناسبة السورة الكريمة لما قبلها

جاءت سورة الضحى بعد سورة الليل ، والمناسبة بينهما واضحة من حيث اللفظ ، ومن حيث المعنى الذى تضمنته سورة الضحى ، ذلك لأن سورة الليل أشارت إلى سنن الله عز وجل فى كونه من سكون الليل، وجلاء النهار ، وفى هذا إشارة إلى آثار الدين القيم فى سلوك الأفراد والجماعات ، فهذا سيدنا أبو بكر – رضى الله عنه – الذى أثمر عطاء الدين فى قلبه ففاز بالرضا والرضوان ، وهذا غيره ممن تكبروا على خالق الأرض والسماء فليس لهم عند الله سبحانه إلا النار .

ومن ثم فإن السورة الكريمة تجلى هذا الملمح النفسى ، والمنزع الإنسانى الكامن وراء الحكمة من خلق الذكر والأنثى .

---

(١) الممتحنة ٤ .

(٢) هود ٨٨ .

أما فى سورة الضحى فتقدم الضحى على الليل تبشيرا وتكريما لصاحب الخلق العظيم - صلى الله عليه وسلم حتى تأنس نفسه بعد وحشة انقطاع الوحى ، وتسعد روحه بهذا النور الذى انقشعت به كل هواجس النفس ، وعمت به أضواء الوحى فى قلب كل حى .

هذا وقد ذهب صاحب روح المعانى – رحمه الله تعالى – إلى أن الرباط بين السورتين جاء من ذكر سيد المتقين - صلى الله عليه وسلم - فى قوله تعالى : " وسيجنبها الأتقى " (١).

ثم عقب بذكر نعمه سبحانه وتعالى عليه صلى الله عليه وسلم فى سورة الضحى .

وهذا – فى رأيى – بعيد عن الصواب ؛ لأن انصراف هذا الوصف إلى سيدنا أبى بكر – رضى الله عنه أولى بالسياق الذى جاء فيه، فالمقارنة بينه وبين صناديد مكة ؛ حيث اتجهت نفس سيدنا أبى بكر – رضى الله عنه – إلى أبواب الخير فأعتق الرقاب التى كانت تعانى من شدة العذاب ، وبذل فى سبيل إعلاء كلمة الله تعالى الغالى والنفيس حبا فى الله سبحانه ، وابتغاء مرضاته ، بينما بخل صناديد مكة بأموالهم فضلا عن تكذيبهم ، وقسوة قلوبهم ، وعناد عقولهم ، ومكابرة نفوسهم .

والقرآن الكريم غنى بمثل هذه المقابلات التى بها يتحدد مصير كل حى ، ويقف من خلالها على بصيرة أمره ، ويضع نفسه بوضوح على طريق رغبت إليه نفسه ، وهال إليها قلبه ، وقد صرح القرآن الكريم قبل سورتى الليل والضحى بهذا الايحاء فى قوله تعالى فى سورة الشمس : " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " (٢).

يؤيد هذا ما جاء بعد " الأتقى " من تعريف بالموصولية فى قوله تعالى : " وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى " (٣). فهذا الوصف صريح فى سيدنا أبى بكر – رضى الله عنه – .

---

(١) الليل ١٧ .
(٢) الشمس ٧ : ١٠ .
(٣) الليل ١٧ ، ١٨ .

هذا بالإضافة إلى هذا التناقض الذى وقع فيه العلامة الألوسى – رحمه الله – حيث صرح بذلك فى نفس هذا المقام فقال : " لما كانت الأولى – الليل – سورة سيدنا أبى بكر – رضى الله عنه – وهذه – يعنى : الضحى – سورة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب جل وعلا بها ، ولم يجعل بينهما واسطة للإيحاء بأنه لا واسطة بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – وبين سيدنا أبى بكر – رضى الله تعالى عنه " (١).

فهذا اعتراف صريح فيما ارتأيته من مناسبة واضحة تربط هذا النسيج المحكم الذى يتعلق فيه الثانى بالأول فى نفس الوقت الذى تشتد فيه حاجة الأول إلى الثانى فى رباط وشيج ، ونظم متماسك لا يصدر إلا من مشكاة نور الله عز وجل .

ولا يقال : كيف يقدم سيدنا أبو بكر – رضى الله عنه – على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن القرآن الكريم يريد من وراء ذلك طمأنة قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو يريد أن يقول – والله تعالى أعلى وأعلم – إن سيدنا أبا بكر قد فاز بالرضا والرضوان ، ومقامه دون النبوة فكيف بسيد الأولين والآخرين ؟! أبدا لم ولن يتخلى الله تعالى عنك فكأنها تهيئة لهذا العطاء ، وتمهيد لهذه الأفضال التى تتوق نفس الفائز دائما إليه .

وفيه من جهة أخرى : تعريض بالمشركين ، بقطع سئ أفكارهم ، وسوء ظنهم فى تكريم وتشريف رب العالمين لسيد ولد آدم – صلى الله عليه وسلم – .

## سبب النزول بين الحال والمقتضى

ذكر السيوطى – رحمه الله تعالى – عن سعيد بن منصور عن جندب قال : أبطأ جبريل – عليه السلام – على النبى صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم فقال المشركون : قد ودع محمد ، وعن زيد بن أرقم

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع والمثانى للألوسى ٣٧٢/١٥ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م .

قال : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه جبريل فقالت أم جميل امرأة أبى لهب : ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك فأنزل الله تعالى الضحى " (١).

عندما نتأمل فى سبب النزول نجد أن ما قاله المشركون فى شأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حالا من أحوال الإيذاء التى عاشها النبى – صلى الله عليه وسلم – .

هذه الحال استدعت من العزيز العليم بيانا بشأنها يرد كيد المعتدين فى نحورهم ، ويوقف غل صدورهم ، ويفند بشدة ما حاك فى صدورهم .

والحال كما قال البلاغيون هى : الأمر الذى يدعو المتكلم إلى أن تكون صياغة العبارة على طريق دون آخر .

ومقتضى الحال هو تلك الخصوصية التى تطلبتها الحال .

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال هو مجئ الكلام مشتملا على تلك الخصوصية ليؤدى الغرض الذى من أجله كان " (٢).

وعلى ذلك فإن مسلك المشركين مع النبى صلى الله عليه وسلم يعد حالا استدعت من الله العلى القدير بيانا بشأنها فكانت سورة الضحى، ومجيئها مشتملة على صنوف الود ، ودروب المحبة ، ومسالك القرب مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وفى كونه من الله عز وجل من التكريم والتشريف لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تعجز القوى البشرية عن إدراك كنهه ، أو الإحاطة بشأنه ، فهو عطاء عظيم من الله العظيم لصاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ينظر لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ٦٠٢ هامش تفسير الجلالين جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى ، دار الجيل الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م .

(٢) ينظر بغية الإيضاح للشيخ عبدالمتعال الصعيدى ٢٦/١ ، المطبعة النموذجية ، بدون تاريخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

## موضوع السورة الكريمة

تعتبر سورة الضحى فى حقيقتها لمسة من فيض الرحمن ، لخير ولد عدنان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلماتها إشراقات من حب الله عز وجل ، وجملها در من ياقوت بحر الجمال والكمال لتسلية سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، والتسرية عن نفسه ، وطمأنة قلبه بأن الذى أعطاه الكوثر لن يتخلى عنه أبدا ؛ فهو الحبيب ، وهو الكليم بدون حجاب ، وهو الرءوف الرحيم صلى الله عليه وسلم .

وقد تجلى إعجاز القرآن الكريم – بتآذر الكلمات والجمل – فى تجلية هذا المعنى العظيم ، والكشف بوضوح عن هذه اللمسة الحانية من رب العالمين لتتويج سيد المرسلين بتاج الود فى أسمى معانيه . والقرب فى أصفى مسالكه ، والحب فى أرفع دروبه .

فإلى رحاب هذه الأنداء ، وأجواء هذه اللطائف نستنشق عبيرها ، ونعيش فى أريج ريحانها بما يمنحنا الله عز وجل من عون ، ويرزقنا من فهم فهو وحده القادر على ذلك ، والمعين عليه .

## التحليل البلاغى للسورة الكريمة

أشرت فيما سبق إلى أن سورة الضحى أنداء من الود ، ودروب من المحبة ، وأفضال من الأنس والقرب لصاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم اقتضى المقام التأكيد بهذا القسم – مع أن الله سبحانه وتعالى صادق بدونه – إلا أن خطورة القضية ، وعلو منزلة المقسم عليه صلى الله عليه وسلم اقتضيا تأكيد هذا الخبر اهتماما بشأنه ، ومعلوم أن مسوغات تأكيد الخبر فى البلاغة قد تتعدى حواجز الشك والانكار ؛ وذلك عندما يكون الخبر من القضايا الخطيرة العظيمة الشأن فتؤكد

دونما حاجة إلى شك المخاطب أو إنكاره إشعاراً بعظمتها ، وتنبيها على خطورتها .

والخبر هنا يقتضى هذا التأكيد ؛ لأنه يخص سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . ومن شأن هذا الخبر بالذات أن يحاط بمزيد من العناية الربانية ، والفيوضات الإلهية بما يليق وجلال المقام الذى منحه الله عز وجل إياه ، فهو تأكيد يتناسب مع المقام تمام المناسبة .

وصدور القسم من رب العالمين يزيد المعنى قوة وإحكاما لدرجة يأنس بها قلب النبى صلى الله عليه وسلم ليدرك عن يقين مدى اهتمام الذات العلية بشأنه ، واستمرا فيضه تعالى وفيضه ، فما هو بالمتروك ، ولا بالمودع ، وإنما هو صاحب الفضل العظيم والكوثر .

وقد تقول : لماذا جاء القسم هنا مثبتاً ولم يأت فى ثوب النفى ؟

والجواب : أن القسم المنفى – وإن كان يفيد التأكيد – إلا أن المعنى معه تحيط به تأويلات ينأى بها المقام هنا ، واحتمالات لا يريدها القرآن الكريم لصاحب المقام العظيم – صلى الله عليه وسلم – فى مثل هذه الحال التى شغفت فيها نفس النبى صلى الله عليه وسلم بمعرفة حقيقة الأمر ، وسبب الفراق ففى ثبوت القسم توضيح لحقيقة المقسم عليه ، ومراعاة لمشاعر النبى صلى الله عليه وسلم – فقد عانت نفسه من فراق الوحى آلاماً ، وقاست من وراء البعد أوجاعاً فمنحها الله سبحانه وتعالى بصدور القسم منه سبحانه " ألطافا من القربى ، وهد هدة للخاطر المقلق، والروح المتعبة ، والقلب الموجوع " (١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن القسم المنفى قد ورد فى الذكر الحكيم فى سبعة مواضع هى :

قوله تعالى : " فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " (٢).

---

(١) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٣٩٢٥/٦ ، دار الشروق الطبعة الشرعية السادسة عشرة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م .

(٢) الواقعة ٧٥ : ٧٧ .

وقوله تعالى : " فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم " (١).

وقوله تعالى : " فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين " (٢).

وقوله تعالى : " لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه " (٣).

وقوله تعالى : " فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم " (٤).

وقوله تعالى : " فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لتركبن طبقاً عن طبق " (٥).

وقوله تعالى : " لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد " (٦).

وقد اختلف العلماء فى تفسير هذه الظاهرة على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن – لا – نافية للقسم ، أى لا أقسم على هذا الأمر، لأنه أوضح من أن يحتاج إلى قسم ، ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقسم عليه ، وتفخيم شأنه .

الوجه الثانى : أن – لا – صلة ، أى : زائدة للتأكيد .

الوجه الثالث : أن – لا – رد لكلام سابق يخالف المقسم عليه ، واستؤنف القسم بعد ذلك ، كقولك ، لا والله إن القيامة لحق ، كأنك كذبت قوماً أنكروا البعث والجزاء " (٧).

---

(١) الحاقة ٣٨ : ٤٠ .
(٢) المعارج ٤٠ ، ٤١ .
(٣) القيامة ١ : ٣ .
(٤) التكوير ١٥ : ١٩ .
(٥) الانشقاق ١٦ : ١٩ .
(٦) البلد ١ ، ٢ .
(٧) ينظر الكشاف للزمخشرى ١٦٣/٤ ، دار المعرفة بدون تاريخ ، ومفاتيح الغيب للرازى ١٤/١٦ ، ١٥ دار الغد العربى ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٦٠/١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣م ، والفتوحات الإلهية

هذه هى الآراء التى ذكرها العلماء فى توجيه دخول النفى على القسم دون ترجيح لواحد منها على الآخر .

وأرى : أن نفى القسم لا يتناسب مع كثرته وثبوته فى القرآن الكريم ، ثم إن القرآن الكريم قد صرح فى أحد هذه الأقسام التى دخلت فيها " لا " على فعل القسم بما يفيد التنويه بشأن هذا القسم ، والتفخيم من قدره ، مما يدل على أن القسم مثبت لا منفى ، ففى سورة الواقعة جاء المصدر من القسم موصوفا بالعظمة فى قوله تعالى : " وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " [1].

أما اعتبار " لا " رد لكلام سابق ففيه تكلف ظاهر ؛ لأن الوقف على " لا " والاستئناف بـ " أقسم " قد يستقيم فى بعض المواضع ، ولا يستقيم فى البعض الآخر .

وكذلك اعتبار " لا " زائدة مردود ؛ لأن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد ، وما من حرف فى هذا الكتاب المجيد إلا ووراءه من الأسرار ما تعجز العقول عن الإحاطة بها ، فالقول بالزيادة فيه لا يتناسب مع جلاله ومهابته إلا إذا أريد الزيادة للتأكيد .

ولذا فإنى أرتضى توجيه الدكتورة بنت الشاطئ لهذه الظاهرة القرآنية ، والذى جاء معتمدا على استقراء بأن هذه الصيغة " لا أقسم " لم تستعمل إلا حينما يكون الفعل مسنداً إلى الله تعالى ، وأن فعل القسم لم يأت فى القرآن الكريم كله مسنداً إلى الله تعالى إلا مع " لا " النافية فقالت :

وهذا الاستقراء صريح الدلالة على أنه سبحانه وتعالى ليس فى حاجة إلى القسم ، وأن نفى الحاجة إلى القسم تأكيد له ، ومن مألوف

---

للجمل ٤٤٥/٤ مطبعة عيسى البابى الحلبى بدون تاريخ ، وروح المعانى للألوسى ١٥٠/١٥ ، ١٥١ ، دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م ، وأسلوب القسم فى القرآن الكريم د/ إبراهيم عبدالحميد التلبى ٨٥ ، ٨٦ ، بحث منشور فى مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، العدد الخامس ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .

(١) الواقعة ٧٦ .

استعمالنا أن نقول : لا أوصيك بفلان تأكيدا للتوصية كما نقول : بغير يمين ، تأكيدا للثقة التى لا نحتاج معها إلى يمين " [1].

فما ذهبت إليه الدكتورة بنت الشاطئ ليس نفيا للقسم كما ذكر العلماء فى توجيهاتهم لدخول " لا " على فعل القسم ، وإنما هو نفى للحاجة إليه ليفيد تأكيد القسم وتفخيمه وتعظيمه بما يتناسب مع ما وصف به فى قوله تعالى : " وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " [2].

كما يتناسب مع خطورة المقسم عليه فى كل ، والمقسم عليه فيما دخلت فيه " لا " النافية على فعل القسم من القضايا الخطيرة التى تستدعى مثل هذا التوكيد كالقسم على أن القرآن الكريم حق ، وأن القيامة حق ،وأن البعث حق ، وأن الإنسان خلق فى معاناة من مولده إلى أن يستقر به القرار إما فى جنة ، وإما فى نار كما يريد الله الواحد القهار ، فهى بحق قضايا مهمة تمادى فى إنكارها المبطلون فكان هذا التأكيد من مقتضيات المقام .

فالقسم المنفى ، وإن كان يفيد التأكيد إلا أنه لا يتناسب مع المقام فى الضحى ؛ لأن القرآن الكريم آثر أن يكون القسم مثبتا مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لينصب النفى بكل ما فى القسم من قوة وإحكام على المقسم عليه .

وكأن القرآن الكريم يريد أن يقول : هذا النفى هو الذى ينبغى أن تتجه القلوب إليه ، وتنعقد حوله ، ليعلم الخلق جميعا ، وبخاصة المشركين أن الله عز وجل ما ترك النبى صلى الله عليه وسلم منذ اختاره، ولا أبغضه منذ أحبه ، وفى هذا رد لكيد المشركين فى نحورهم، وقتل لكل أمنية تعلقت بها نفوسهم ، واشتاقت لها قلوبهم المريضة من قتل هذا الدين فى مهده ؟ فليموتوا بغيظهم ، وليرض المصطفى ﷺ بفيض من الآلاء التى لا حد لها ولا حصر .

---

(١) التفسير البيان للقرآن الكريم د/ عائشة عبدالرحمن ١٦٦/١ .

(٢) الواقعة ٦٧ .

ولسائل أن يقول : كيف يقسم الله تعالى بمخلوقاته ، وقد ورد النهى عن القسم بمخلوق ؟

وقد أجاب العلامة الزركشى – رحمه الله – على هذا السؤال بثلاثة وجوه :

الأول : أنه على حذف مضاف ، أى : ورب الضحى والليل ، ورب الفجر ، وكذلك الباقى .

والثانى : أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها ، فنزل القرآن الكريم على ما يعرفون .

والثالث : أن الأقسام إنما تجب بأن يقسم الرجل بما يعظمه ، أو بمن يجله وهو فوقه ، والله تعالى ليس شئ فوقه فأقسم سبحانه تارة بنفسه، وتارة بمصنوعاته ؛ لأنها تدل على بارئ وصانع " [1].

والرأى الثالث هو أنسب واظهر هذه الآراء ، وأقربها إلى الصواب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى – فوق كل شئ ، فله أن يقسم بذاته الشريفة ، وله أن يقسم – بمخلوقاته ؛ لأن القسم بها لا يراد به تقديسها ، وإنما يراد به الاستدلال على عظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وأى شئ من خلق الله تعالى جدير بأن يكون دليلاً على وحدانيته وقدرته مهما يكن ضئيل الخلقة كالبعوضة " [2] ، ففيها من دلائل القدرة ، وعظيم الصنعة ما يعجز الخلق عن إدراك كنهه وسره . وصدق الله العظيم فقد قال : " يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب " [3].

على أن القسم بالفجر ، والشمس ، والليل ، والضحى ، ومجئ النظم فيها بتقديم النور على الظلام ، والظلام على النور إنما هو كناية

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٤١/٣ ، ٤٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة دار التراث ، الطبعة الثانية بدون تاريخ .

(٢) مع القرآن الكريم د/ أحمد محمد الحوفى ١٢١/١ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م .

(٣) الحج ٧٣ .

عن الدين الحق ، والكفر ، عن الولاء لله عز وجل ، أو الولاء للشيطان . عن التقوى أو الفجور ، عن الصدق والكذب . عن العطاء والمنع . عن الصدق والكذب . ففطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها هى ذلك النور الواضح فى قلب كل مسلم ، وهى ذلك الهاتف الداعى إلى امتثال ولاية الله عز وجل ، والتحذير من ولاية الشيطان .

كما تشير إلى تقلبات الزمان ، ودوران الأفلاك وما يحدث فيه من عجيب صنع الله تعالى حتى لا يغتر طائع بطاعته ولا يقنط عاص من معصيته ، ومن ثم فإن هذه الأقسام تشير من طرف خفى إلى امتنان الله تعالى على سيدنا رسول الله ﷺ ؛ لأنها إن كانت على وعيد ففيها تسلية له صلى الله عليه وسلم - وتسرية عنه ، وإن أوعدت أتباعه ففيها طمأنة لقلبه ، وإرضاء لنفسه ﷺ .

وقد ذكر المفسرون ما يفيد أن " الضحى والليل " كناية عن معان كثيرة منها : أن " الضحى " رسالته ﷺ والليل زمان احتباس الوحى فيه؛ لأنه فى حال النزول حصل الاستئناس ، وفى زمان الاحتباس حصل الاستيحاش أو " الضحى " نور علمه تعالى الذى يعرف المستور من الغيوب والليل عفوه تعالى الذى به يستر جميع العيوب ، أو " الضحى " إقبال الإسلام بعد أن كان غريباً ، والليل إشارة إلى أنه سيعود غريباً ، أو " الضحى " كمال العقل والليل حال الموت " [1].

وعند التأمل فيما ذكره المفسرون نجد أن الذى يتناسب مع المقام هو المعنى الأول ، وهو أن " الضحى والليل " كناية عن رسالته ﷺ ، وما حدث له ﷺ من وحشة بانقطاع الوحى ، واستئناس بنزوله ؛ ولأنه يتناسب مع ما ورد فى سبب نزول السورة الكريمة ، والذى اعتبره القرآن الكريم حالا اقتضت تكريم النبى صلى الله عليه وسلم . وتشريفه بتخصيص هذه السورة الكريمة فى طمأنة قلبه بنفى ما توهم فيه .

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازى ٤٦٩/١٦ دار الغد العربى ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، وروح المعانى للألوسى ٣٧٣/١٥ ، والمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣٢٠/١٦ تحقيق المجلس العلمى تارودانت ١٤١١ هـ ١٩٩١م .

وعلى هذا المعنى يكون فى الطباق بين " الضحى والليل " وصف كاشف لحالة المصطفى ﷺ عند انقطاع الوحى ونزوله .

وتصوير مشاعر النبى ﷺ بهذا الطباق يوحى بأن هناك رباطا قويا بين مشاعر النفس وعناصر الكون التى تحوى من أحوال النفس فى فرحها وحزنها ، وتبشيرها ووعيدها ، وخوفها وأمنها إلى آخر تلك الأحوال التى لا حد لها ولا حصر ، فالليل رمز للهموم والأحزان ، والنهار على العكس من ذلك .

يضاف إلى ذلك : ما أبرزه هذا الطباق من وضوح الفطرة فى رسالة النبى ﷺ وأنها كالمحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك ارتضى أن يعيش فى ظلمة النفس ، وظلمة الكون من حوله . على الرغم من وضوح دينه ، وسماحة مبادئه وتعاليمه ، فهو صاف صفاء الشمس فى ضحاها ، فضوء الشمس يعظم وقت الضحى ، وهو مع عظمته أعدل الأوقات بالنسبة للنهار سواء أكان ذلك فى الصيف أم الشتاء ، وفى هذا إيحاء بقيومية هذا الدين ، فهو الدين القيم الذى تحكم به النفوس فى ظل منهج الله عز وجل ، وتقيد الشهوات ، وتسمو به الطاعات لتصفو وتخلص لله رب العالمين .

وأكثر المفسرين على أن " الضحى " مستعمل فى النهار كله على طريق المجاز المرسل بعلاقة الجزئية ، وحجتهم فى ذلك مجيئه فى مقابل الليل [1].

وكلامهم هذا يحتاج إلى نظر ؛ لأنه لا يتناسب مع المقام فالمراد من الضحى هنا هو إبراز صفاء الضوء فى هذا الوقت من النهار ليتأتى به المعنى الذى أراده القرآن الكريم .

ثم إن القرآن الكريم لم يأت بالليل مطلقاً ، وإنما قيده بقوله : " إذا سجى " ، أى غطى ظلامه الكون كله ، وفى هذا من التناسب بينه وبين

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشرى ٣١٩/٤ ، وتفسير البغوى للإمام محمد بن الحسين بن مسعود الفراء البغوى ٤٩٧/٤ تحقيق خالد عبدالرحمن ومروان سوار ، دار المعرفة بيروت لبنان – الطبعة الثانية ٤٠٧ هـ ١٩٨٧م ، وتفسير روح البيان لاسماعيل حقى الدرسوى ٤٥٢/١٠ ، دار الفكر بدون تاريخ ، وروح المعانى للألوسى .

الضحى ما فيه ، فكأنه قصد أصفى وقت فى النهار ، وأظلم وقت فى الليل ، وبهذا تتضح المعانى وتتميز .

وإسناد الفعل " سجى " إلى الليل مجاز عقلى يفيد المبالغة فى تناهى الظلام إلى درجة لا يزداد بعدها ، وعلى قدر ما فيه من مبالغة فى هذا الجانب فيه مبالغة فيما عاناه المصطفى ﷺ من قلق فترة انقطاع الوحى عنه ، وانشغاله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر إلى درجة شوقه إلى عظيم فضل الله تعالى عليه ﷺ .

وفيه أيضا لفتُ أنظار الخلق جميعا إلى صنع الله الذى أتقن كل شئ ، وأن الضحى والليل آيتين من آيات الله عز وجل ، وفيهما من الاسرار الإلهية ما به يكون وصف حال النبى ﷺ من الوضوح بمكانته .

وبعد أن بين القرآن الكريم حال النبى ﷺ بهذا القسم ، وجعل الضحى والليل دليلا على تلك الحال بما يتضمنه كل منهما من معان جاء المقسم عليه فى قوله تعالى : " ما ودعك ربك وما قلى " .

وقد ذهب الزمخشرى – رحمه الله – إلى أن التوديع مبالغة فى الودع ؛ لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ فى تركك [1].

وذهب الراغب إلى أن التوديع أصله من الدعة ، وهو أن يدعو للمسافر بأن يتحمل الله عنه كآبة السفر ، وأن يبلغه الدعة ورخاء العيش، كما أن التسليم دعاء له بالسلامة ، فصار ذلك متعارفا فى تشييع المسافر وعبر به عن الترك فى الآية الكريمة ، والمعنى ، ما قطعك قطع المودع"[2].

وقال صاحب روح المعانى إلى ما قاله الراغب ، ورد على ما أتاه الزمخشرى بقوله : " وعليه يلزم أن يكون المنفى الترك المبالغ فيه دون أصل الترك مع أن الظاهر نفى ذلك ، فلابد من أن يقال : إنه إنما نفى ذلك لأنه الواقع فى كلام المشركين الذى نزلت له الآية ، أو أن

---

(١) الكشاف للزمخشرى ٤/٢١٩ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى مادة ودع تحقيق محمد سيد كيلانى ، دار المعرفة بدون تاريخ .

المبالغة تعود على النفى فيكون المراد المبالغة فى النفى لا نفى المبالغة"[1].

ويمكن التوفيق بين ما ذهب إليه العلماء بأن العلامة الزمخشرى نظر إلى ما تنطوى عليه صدور المشركين تجاه سيد المرسلين ﷺ من بغض وكره ، ومكر تزول منه الجبال ، والذى حالته كذلك يتمنى زوال خصمه ، وهلاكه ودماره ، فحمل اللفظ القرآنى ، وما جاء عليه من صيغة المبالغة هذا المعنى ، ليحكى بجرسه وتكوينه الصوتى نفى ما توهموه فى حضرة النبى ﷺ بكل شدة ، وفى هذا النفى بهذه الطريقة : حسرة لقلوبهم ، وإبراز لضلال سعيهم ، وخيبة رجائهم حيث رد القرآن الكريم بهذه المبالغة اعتقادهم ، وجاء الأمر على خلاف ما توهموه .

أما الراغب والألوسى فقد نظرا إلى أصل اللفظ ، وما فيه من دعة ورفق يتناسب مع المتحدث عنه ﷺ .

والمقام يحتمل هذا وذاك ويتسع لأكثر من ذلك مما يفيض الله به على عباده ، بيد أنى أميل إلى ما ذكره الزمخشرى لتناسبه مع حال المشركين من جهة ، وانسجامه مع ما يريد القرآن الكريم أن يقرره لحضرة النبى ﷺ من " أن الله سبحانه وتعالى ما تركه ﷺ منذ اعتنى به ، ولا أهمله منذ رباه ورعاه ، بل لم يزل يربيه أكمل تربية ، ويعليه درجة بعد درجة ، ونفى الضد دليل على ثبوت ضده ، والنفى المحض لا يكون مدحاً إلا إذا تضمن ثبوت كمال ، فهذه حال حضرة النبى ﷺ الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمها محبة الله تعالى له ، واستمرارها ، وترقيته فى درجات الكمال ، ودوام اعتناء الله تعالى به "[2].

هذا بالإضافة إلى أن المبالغة هنا يساندها من جانب آخر استعارة التوديع على هذا المعنى للترك حيث شبه القرآن الكريم الترك بالتوديع ، ثم تنوس التشبيه وادعى أن المشبه هو عين المشبه به وداخل فى جنسه، ثم استعير التوديع للترك ، ثم اشتق من التوديع " ما ودعك " بمعنى ما

---

(١) روح المعانى للألوسى ٣٧٤/١٥ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لعبدالرحمن ناصر السعدى ٦٤١/٧ تحقيق محمد زهرى النجار – السعودية بدون تاريخ .

تركك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ومجئ التعبير فى ثوبها يتناسب مع المقام تمام المناسبة لما فيها من المبالغة فى إبراز معنى اللطف ، والتعظيم لسيدنا رسول الله ﷺ ، ولذا آثر القرآن الكريم مع حضرته ﷺ نفى الوداع دون الترك ؛ لأن الوداع إنما يكون بين الأحباب ، ومن تعز مفارقته[1] ومن ثم سمى آخر لقاء بين النبى ﷺ ، وبين الصحابة رضوان الله عليهم بحجة الوداع .

ثم إن فى الترك إهمالا واقتصاراً فآثر النظم الكريم المعجز أن يكون النفى مع الوداع ليتناسب مع مقام سيد المرسلين ﷺ ، وهو من هو عند رب العالمين جل فى علاه .

وإبراز المفعول فى قوله تعالى " ما ودعك " يتناسب مع المقام تمام المناسبة ، لأنه يزيد فى نفى الترك لمسات من الحنان ، ورحمات من نسائم الود ، ودرجات من الزلفى والقرب .

ومع أن المعنى يتأتى بقولنا القاصر ما ودعتك ، لكن القرآن الكريم عدل عن هذا إلى ذلك النظم المعجز : " ما ودعك ربك " ، وذلك بإسناد الفعل إلى لفظ " رب " مضافاً إلى ضمير المخاطب تشريفا ، وتكريما ، وتقديرا وتعظيما لصاحب الخلق العظيم ﷺ ، لما فيه من تذكير بتربيته تعالى لحبيبه ﷺ ، بكل ما تقتضيه وجوه التربية من أفضال ، وبر ، وإنعام – على أتم ما يكون من ذلك وأكمله ، وإذا كان المربى من البشر أكثر حرصا وبرا بمن يربى فما بالنا بتربية الله عز وجل لنبيه وحبيبه ﷺ .

فالتعبير بلفظ " رب " هنا يتناسب مع المقام تمام المناسبة لما فيه من رد توهم المشركين فى نحورهم بإبراز مدى عناية رب العالمين برسوله ﷺ ، واختصاصه بامتنانه وعظيم عطائه فهو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ .

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة ودع الهيئة المصرية العامة للكتاب . وروح المعانى للألوسي ١٥ / ٣٧٤ .

وبعد هذا النفى المؤكد على أبلغ وجه عطف القرآن الكريم وفى هذا برهان واضح على محبة الله عز وجل ، ومدى عنايته به ﷺ ، واهتمامه بشأنه وهذا ما فهمته من قول صاحب روح المعانى : " وحذف المفعول لئلا يواجه حضرة النبى ﷺ بنسبة القلى ، وإن كانت فى كلام منفى لطفا به ﷺ وشفقة عليه ﷺ ، أو لنفى صدوره عنه عز وجل بالنسبة إليه ﷺ ، ولأحد من أصحابه ، ومن أحبه ﷺ إلى يوم القيامة " (١).

ولا يخفى على أحد ما فى هذا الحذف من رعاية للفواصل ، به يسوق القرآن الكريم المعنى إلى القلب ، ويقره فى النفوس بأبلغ وجه وأكمله ، تأمل هنا تجد أن بين النفيين من التناسب والتعلق والارتباط ما يجعل تعلق القلب بالمعنى أكثر من تشوقه إلى الفاصلة ؛ إذ قد يتوهم بعد نفى التوديع أنه ما ودعه لكن لا يحبه ، فاحترس القرآن الكريم بأنه ما تركه ﷺ لأنه يحبه ، وهل يترك حبيب أفضل من أحب ، وأخلص له سبحانه .

فهنا إبطال لمقالة المشركين ، وقتل لما قد يطرأ على أذهانهم من فكر خبيث وظن سيء ، وفيه بجانب عليه ما يفيد بأنه علة لما سبق فقال :" وما قلى " فهو من عطف السبب على المسبب لإفادة التعليل "(٢)

وتقديم المسبب على السبب هنا يتناسب مع مقام سيد المرسلين ﷺ ، لما فيه من طمأنة لقلبه ، وإيناس لفؤاده ﷺ ، وكأن – إسعاد النبى ﷺ وراحته أمر يهتم به القرآن الكريم اهتماما بالغا ، فهو كفضله عليه فى قوله تعالى : " عفا الله عنك لم أذنت لهم " (٣)

حيث أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب ﷺ .

وقد أكد القرآن الكريم ذلك بحذف المفعول هنا فلم يقل : وما قلاك ، ليكون فى هذا الحذف إثبات معنى التكريم والتشريف لسيدنا

---

(١) روح المعانى للألوسي ١٥/٣٧٥ .
(٢) روح البيان لإسماعيل حقى البرسوى ١٠/٤٥٤ .
(٣) التوبة ٣٤ .

رسول الله ﷺ ، وكأن فطرة اللغة تدخلت فى صياغة العبارة فأبت أن تواجه حضرة النبى ﷺ بهذا الخطاب على الرغم من نفيه بأبلغ وجه .

يضاف إلى ذلك : أن النفى هنا يفيد العموم والشمول ، ذلك إيضاح لمقام حضرة النبى ﷺ ، وبيان لمنزلته عند الله رب العالمين .

وبعد أن أكد القرآن الكريم على رفعة مكانة النبى ﷺ فى الدنيا من مواصلة الخيرات والكرامات بين حاله كذلك فى المستقبل بأن ما ينتظره ﷺ أجل وأعظم فقال [١] " وللآخرة خير لك من الأولى "[٢]

وعند الزمخشرى – رحمه الله – أن هذا القول الكريم معطوف على نفى الترك والبغض فى قوله تعالى : " ما ودعك ربك وما قلى "[٣]

وقد أجاب عن وجه الربط بقوله : لما كان فى ضمن نفى التوديع والقلى أن الله سبحانه وتعالى مواصلك بالوحى إليك ، وأنك حبيب الله عز وجل ، ولا نرى كرامة أعظم من ذلك ، ولا أجل منه ، أخبره إن حاله فى الآخرة أعظم من ذلك وأجل ، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على جميع الأمم ، ورفع درجات المؤمنين ، وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك . [٤]

" وقد ذكر صاحب روح المعانى من بين ما ذكر من وجوه الربط هنا أن الجملة مستأنفة ، واللام فيها ابتدائية لتأكيد مضمون الجملة بعدها "[٥] .

وأنا أميل إلى ما ارتآه العلامة الزمخشرى ، لأن المقام أبعد ما يكون عن الاستئناف ، فهو مقام قرب ووصال ، وأفضال يريد القرآن الكريم أن يقدمها لحضرة النبى ﷺ على مشكاة من نور الله عز وجل ، وأن ينسجها فى سلك المحبة والتكريم لسيدنا رسول الله ﷺ ، وبخاصة

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ٣٠٦/٢٢ ، ٣٠٧ الهند الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ .

(٢) الضحى ٤ .

(٣) الضحى ٣ .

(٤) الكشاف للزمخشرى ٤ / ٢١٩ .

(٥) روح المعانى للألوسي ٣٧٨/١٥ .

بعد أن شمت فيه المشركون ، وسعدت قلوبهم لتألم رسول الله ﷺ ، فمقتضى المقام هنا كما رأى الزمخشرى – رحمه الله – أن تعد الأفضال وأن تبسط الآلاء ، وأن يقدم الامتنان دفعة واحدة حتى تخرس معه ألسنة المشركين ، ويخمد حقد الحاقدين ، وفى هذا من التعريض بهم ما فيه ، لأنه ﷺ مع كل هذا العطاء مكرم فى الآخرة ، وما له فيها أعظم وأجل من أن يتصور ، أو يتخيل ، أما هم فليس لهم فى الآخرة إلا النار ، فليموتوا بحسرتهم فى الدنيا ، ولينتظرهم فى الآخرة عذاب ما بعده عذاب .

ومع أن النظم الكريم فى قوله تعالى " وللآخرة خير لك من الأولى "[1] لم يأت على طريق من طرق القصر المعروفة إلا أنه يشم منه رائحة القصر فالقارئ أو السامع لهذا القول الكريم لا يجد بدا من تخصيص هذه الأفضال بسيدنا رسول الله ﷺ ، فقوله تعالى : " لك " يحدد المراد بوضوح تام ليتناسب مع مقام سيد الأولين والآخرين ﷺ ، لأنه إذا كان لأدنى من يدخل الجنة من أمته ﷺ عند الله رب العالمين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكيف به ﷺ، ومقامه عند ربه لا يعدوه مقام ؟ ! .

وقد أشار إلى ذلك العلامة الألوسى – رحمه الله – فى قوله : " والاختصاص الذى تقتضيه اللام قيل : إضافى على معنى اختصاصه ﷺ بخيرية الآخرة دون من آذاه ، وشمت بتأخير الوحى عنه ﷺ ، ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين ، كيف وقد علم بالضرورة أن الخير المعد له ﷺ خير من المعد لغيره على الإطلاق ، ويكفى فى ذلك اختصاص المقام المحمود به ﷺ [2].

وأرى أن إرادة العموم هنا بعيدة عن جلال المقام ؟ لأن هذه الأفضال خصّ بها سيدنا رسول الله ﷺ . فى حال اقتضت رفعة مكانته ، وامتنان الله تعالى عليه بعظيم أفضاله .

---

(١) الضحى ٤ .

(٢) روح المعانى للالوسى ٣٧٧/١٥ .

يؤيد هذا أن سورة الضحى جاءت بداية أفضال لحضرة النبى ﷺ كان تمامها فى سورة الكوثر التى أطلق فيها العطاء ، وقهر فيها الأعداء ، وتولى فيها الدفاع عنه ﷺ مولاه ، تشريفا وتكريما له ﷺ بمواجهة أعدائه فى قوله تعالى : " إن شانئك هو الأبتر "[1] .

فى حال من المشركين تشبه هذه الحال ، وكأن القرآن الكريم يريد أن يقول لنبيه محمد ﷺ : لا تهتم بأمر هؤلاء فالخير مقطوع عنهم فى الدنيا والآخرة فلست المبغض ولا الأبتر ، وإنما أنت صاحب الكوثر .

فالتخصيص هنا من مقتضيات المقام ؛ لأنه أوقع حسرة فى قلوب المشركين ، وأشد أثرا فى نفوسهم ، فى ظل مقام يعتلى حضرة النبى ﷺ فيه درجات ، ويهوى المشركون بسببه دركات .

ويساند التخصيص هنا فى دلالته ذلك الطباق فى قوله تعالى :

" وللآخرة خير لك من الأولى "[2]

والذى جاء استدعاء لنداء المقام ، فلم يعبر القرآن الكريم بلفظ الدنيا فى مقابل الآخرة ، وإنما أشار إليها بالأولى ليتم التطابق اللفظى قبل التطابق المعنوى ، وليكون فى التطابق اللفظى إشارة إلى عظيم صفات الله عز وجل ، فهو الأول الذى لا شئ قبله ، والآخر الذى لا شيء بعده ، وفى هذا إشعار بامتنان الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ووعد باستزادة العطاء فى الدار الباقية .

يضاف إلى ذلك : أن القرآن الكريم أراد أن يبتعد فى اللفظ عن كل ما يؤدى إلى الذم والدنو فى مقام من أجل المقامات وأعلاها فآثر التعبير بالأولى عن الدنيا تكريماً وتشريفا لحضرة النبى ﷺ ، لما فى لفظ الدنيا من عطاء لا يتناسب وشأن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد استخلصه الله لنفسه ، وحفظه منها لدرجة لم يكن لها فى قلبه ﷺ ما يستحق مجرد التعبير بها فى اللفظ ، فهى بعيدة عنه ﷺ لفظا ومعنى . "

---

(١) الكوثر ٣ .
(٢) الضحى ٤ .

ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس فى الدنيا ، وأعظمهم إطراحا لها[1]، ولما خُير حضرة النبى ﷺ فى آخر عمره بين الخلد فى الدنيا والجنة ، وبين لقاء مولاه اختار ما عند الله عز وجل على هذه الدنيا الدنية "[2] .

وإذا كان النظم الكريم قد وضع حضرة النبى ﷺ بين خيرى الدنيا والآخرة ، ووعد باستزادة العطاء فى الآخرة ، ولما كان شرف المقام أعلى وأجل أطلق له ﷺ عنان العطاء فى المستقبل المفتوح الذى لا حد لزمنه ، ولا حصر لمكانه فقال تعالى :

" ولسوف يعطيك ربك فترضى " [3].

قال الزمخشرى – رحمه الله - : " هذا وعد شامل لما أعطاه فى الدنيا من الفلج والظفر بأعدائه يوم بدر ، ويوم فتح مكة ، ودخول الناس فى الدين أفواجا ، والغلبة على بنى قريظة والنضير ، وبث عساكره وسراياه فى بلاد العرب ، وما فتح على خلفائه الراشدين فى أقطار الأرض من المدائن ، وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة ، وما قذف فى قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب ، وانتشار دعوته ﷺ ، وغير ذلك كثير ، ثم ما ادخر له من الثواب الذى لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب جل فى علاه ، وعلى رأسه الشفاعة والكوثر " [4].

وليس هناك أجل ولا أعظم مما امتن الله تعالى به عليه ﷺ ، ومن ثم اقتضى المقام تأكيد هذا الخبر لعظم مضمونه ، وخطورة محتواه ، فدخلت لام التأكيد على الخبر لتعجيل المسرة ، وتبشير النبى ﷺ بما به يطمئن قلبه " وجمعها مع سوف للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة ، وإن تأخر لحكمة ، يعنى أن لام الابتداء لما تجردت للدلالة على التأكيد ، وكانت السين تدل على التأخير والتنفيس حصل من اجتماعهما أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابى الفداء إسماعيل بن كثير ٥٤٤/٤ ، دار الجيل بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(٢) البخاري بشرح الفتح لابن حجر العسقلانى ٧٨٤/٩ ، دار ابى صان ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م .

(٣) الضحى ٥ .

(٤) الكشاف للزمخشرى ٤ / ٢١٩ .

العطاء المتأخر لحكمة كائن لا محالة ، وكانت اللام لتأكيد الحكم المقترن بالاستقبال " [1].

وفى هذا إشعار بأننا بين المنع والعطاء فإن منع الله عز وجل فلحكمة ، وإذا أعطى فلرحمة ، ولن يضيع مؤمن بين حكمة الله ورحمته ، وإذا كان هذا الفضل مع عامة المؤمنين فكيف بسيد الأولين والآخرين ﷺ ، " والذى عدد الله عليه نعمه وأياديه ، ونبهه على على أنه لم يخله منها من أول ترقيه ، وابتداء نشئه ترشيحا لما أراد به ﷺ ليقيس المترقب من فضل الله تعالى على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة " [2].

فأنت ترى أبوابا من الأفضال ، وأنواعا من الإنعام ، ودروبا من الإكرام لا يمكن التعبير عنها إلا بهذه الآية الجامعة الشاملة :

" ولسوف يعطيك ربك فترضى " .

فهو إيجاز قصر يقتضيه المقام ويتطلبه يشعرنا به رب العالمين بأن كل جملة من هذا البيان المعجز إنما هو فى حقيقته جملة من المكرمات ، لا يستطيع العقل مهما أوتى من دقة فكرية حصرها ، أو الوقوف على محتواها .

ولك أن تتمثل هذا العطاء عندما تقرأ أو تسمع مع سيد الخلق ﷺ قول الله تعالى :

" ولسوف يعطيك ربك فترضى " .

وتسمع أو تقرأ مع سيدنا موسى – على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم السلام – قول الله تعالى :

" وعجلت إليك رب لترضى " [3]

---

(١) روح المعانى للألوسي ٣٧٨/١٥ ، وروح البيان للبروسوى ٤٠٤/١٠ .

(٢) الكشاف للزمخشرى ٢١٩/٤ .

(٣) طه ٨٤ .

حيث كان عطاء الله سبحانه وتعالى – لنبيه وحبيبه نابعا من مصدر التشريف والتكريم ، بينما كان لغيره من الأنبياء من منبع تبعات التكليف .

وإذا كان دخـــول اللام على سوف قد جعل العطاء كائنا لا محالة، فقد أضاف القرآن الكريم إلى هذه الدلالة التعبير بالمضارع فى قوله : " يعطيك " ليفيد التجدد والحدوث ، فمع كل لحظة يولد للنبى ﷺ عطاء ، ويكتب له فضل ، ويمنح مع كل نفس أنسا على أنس ، ليس هذا فى حياته ﷺ فقط ، وإنما يمتد ذلك العطاء حسب منطوق الآية الكريمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالباب مفتوح ، وعطاؤه لنبيه ﷺ ممدود لا مقطوع ولا ممنوع .

وقد تقول : لماذا قال القرآن الكريم " يعطيك " ولم يقل : يؤتيك ؟

أقول : إن التعبير بهذه المادة يفيد فوق دلالة المضارع أسرارا تنسج فى سلك التكريم والتشريف لسيدنا رسول الله ﷺ ؛ لأن إسناد الإعطاء إلى رب العالمين دون الإيتاء فيه إشارة إلى أن ذلك إيتاء على جهة التمليك ؛ ومنه قوله تعالى لسيدنا سليمان – على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : " هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب " [1].

بعد قوله تعالى : " قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب " [2].

وفيه إشارة إلى أن المعطى ، وإن كان كثيراً فى نفسه فإنه قليل بالنسبة إلى شأنه ﷺ بناء على أن الإيتاء لا يستعمل إلا فى الشئ العظيم كقوله تعالى : " وآتاه الله الملك ..... " [3].

وقوله تعالى : " ولقد آتينا داود منا فضلا ..... " [4].

---

(١) ص ٣٩ .
(٢) ص ٣٥ .
(٣) البقرة ٢١٥ .
(٤) سبا ١٠ .

وقـوله تعـالى : " ولقد آتينـاك سبـعا من المـثانى والقـرآن العظيـم " [1].

والإعطاء يستعمل فى القليل والكثير ، وصدق الله العظيم فقد قال: " وأعطى قليلا وأكدى " [2].

وفى هذا من التشريف والتعظيم لسيدنا رسول الله ﷺ ما فيه ، كما يلمح من التعبير بالإعطاء دون الإيتاء أن عطاء الله سبحانه وتعالى تفضل وامتنان ، وهذا بخلاف الإيتاء فإنه قد يكون واجبا ، وفى هذا إشارة إلى دوام هذا العطاء ، وتزايده أبدا ؛ لأنه من منبع كرم الله سبحانه وتعالى – الغير متناهى " [3].

يضاف إلى ذلك : أن الإعطاء عبارة عن اتصال الشيء بالأخذ له كما قال صاحب المفردات اللغوية [4].

وفى هذا تنبيه على أن حضرة النبى ﷺ موصول بأفضال الله تعالى ، محاط بعنايته ، ملاحظ بجلاله وهيبته .

ولا زال لفظ " رب " الذى أسند العطاء إليه ، كما أسند إليه نفى التوديع يفيض على المحبوب كل معانى التربية ، بل كل ما تقتضيه ربوبيته تعالى لأفضل خلقه ﷺ .

- وإضافة لفظ " رب " إلى ضمير المخاطب ﷺ تشريف وتكريم وتعظيم ؛ إذ كل ما يضاف إلى العظيم عظيم .

والفاء فى قوله : " فترضى " للتعقيب ، والتعبير بها يتناسب مع المقام تمام المناسبة ؛ لأنها تفيد أن إرضاء النبى ﷺ أمر يعتنى به القرآن الكريم ، ويهتم به اهتماماً بالغا ، فالرضا وهو أعلى درجات اليقين فضل ينعم به النبى ﷺ فور كل عطاء ، والتعبير بصيغة المضارع معه ، والتى جاءت متناسبة مع التعبير بها فى العطاء يفيد بجانب التجدد والحدوث

---

(١) الحجر ٨٧ .
(٢) النجم ٣٤ .
(٣) ينظر روح المعانى للألوسي ٤٨/١٥ .
(٤) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ٤٣ تحقيق حسام الدين القدس ، مكتبة القدس ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

هذا الفيض الذى تدره السماء على حضرة النبى ﷺ من ألوان الامتنان وأنواع الأفضال التى لا ينضب معينها ، بل تتجدد مع كل نفس ، ويتجدد معها رضاه ﷺ .

ولذا كانت الفاء هنا أولى وأنسب بالمقام من اللام أولى ؛ لأن القرآن الكريم أراد أن ينبهنا إلى أن تكريم الله عز وجل لنبيه ﷺ غير مرتبط بعلة ، وأن عطاءه سبحانه له ﷺ لم يكن إلا من منبع مشيئته وحبه ، واصطفائه لسيد الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه .

وبعد أن أكد القرآن الكريم وعده للنبى ﷺ بأنه لا يزال يرقيه فى كل لحظة فى مراقى العلا والشرف ذكر بما كان منه قبل ذلك "[1] فقال :

" ألم يجدك يتيما فآوى ..... "[2]

وهو استئناف مسوق لتعداد أياديه ونعمه عليه ﷺ ، والغرض من تعدادها تقوية قلبه ﷺ ، وطمأنته بانشراح صدره ، وتشجيعه على السير فى طريقه التى اختارها الله تعالى له ﷺ ، وهى طريقة محمودة العواقب سليمة المغاب " [3].

وأنت تلاحظ أن الاستفهام فى قوله تعالى : " ألم يجدك يتيما " ليس على حقيقته لصدوره من الله العليم الخبير ولذا خرج الاستفهام إلى معنى تقتضيه المقام وهو : الإنكار ، أى : إنكار النفى وتقرير المنفى على أبلغ وجه ، كأنه قيل ، قد وجدك ، لكن عدل هنا عن الخبر إلى الإنشاء لما فيه من إثارة كوامن النفس ، وتحريك المشاعر ، وتطلع النفس بشوق ولهفة إلى معرفة المستفهم عنه ليتمكن فيها – بعد التهيئة له – فضل تمكن ، وليقع فى القلب موقع برد الماء على الظمأ .

إذن هناك فرق بين قولنا القاصر قد وجدك ، وبين ذلك النظم المعجز لما فى الاستفهام من حضور وتهيؤ ليس فى المعنى الخبرى ، هذا بالإضافة إلى أن القرآن الكريم بإنكار النفى وتقرير المنفى هيأ

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ١٠٩/٢٢ .

(٢) الضحى

(٣) ينظر روح المعانى للألوسي ١٨٠/١٥ ، وإعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش ٥١٠/١٠ ، دار ابن كثير اليمامة سوريا ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

المعنى لقلبه من الماضى إلى المستقبل ليتلاءم بعد ذلك مع طلب القرآن الكريم معايشة هذا الواقع مع كل يتيم ، وليستحضر إنعام الله تعالى عليه فى كل وقت وحين ، وما من شك فى أن توجيه حضرة النبى ﷺ إلى ذلك توجيه لأمته فى المقام الأول .

وفى التعبير بمادة " وجد " فى قوله تعالى : " ألم يجدك " مجاز مرسل ؛ إذ المراد بالوجود هنا : العلم ، والعلاقة للزومية ، وتكمن بلاغة هذا المجاز فى إيصال كل معانى التكريم والتشريف لسيدنا رسول الله ﷺ ، لأن الوجود فى مفردات الراغب أضرب : وجود بالحواس الظاهرة ، ووجود بالقوى الباطنة ، ووجود بالفعل ، وما نسب إلى الله تعالى من الوجود فبمعنى العلم المجرد ، لأن الله سبحانه وتعالى – منزه عن الجوارح والآلات – تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً "[1].

ممن أمره بين الكاف والنون .

هذا وقد ذهب بعض المفسرين [2] فى تفسير اليتيمم إلى معنى التجوز فيه ، وذلك بإرادة معنى الانفراد منه دون انقطاع الولد عن أبيه[3] . من قولهم : درة يتيمة إذا لم يكن لها مثل ، ، والمعنى : ألم يجدك واحداً فى شرفك لا نظير لك فآواك الله سبحانه وتعالى بأصحاب يحفظونك ، أو جعل لكل من تأوى إليه ، وهو أبو طالب .

وارى أن إرادة معنى الانفراد من اليتيم يبعد المقام هنا عن جلاله؛ لأن الواقع يخالفه حيث نشأ النبى ﷺ يتيما بالفعل ، وخبره فى ذلك من الوضوح بمكان .

يؤيد هذا حذف المفعول من قوله " فآوى " إذ التقدير – والله تعالى أعلى واعلم – فآواك ، وحذف المفعول هنا يتناسب مع المقام تمام المناسبة ، لأنه يفيد العموم والشمول .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة وجد .،

(٢) الكشاف للزمخشرى ٤ / ٢٢٠ ، ومفاتيح الغيب للرازى ٤٧٦/١٦ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٦٥/١٠ .

(٣) الأصفهاني مادة يتم .

وحال النبى ﷺ يومئذ كانت تقتضى هذا العموم ؛ لأنه يفيد أن إيواء الله لنبيه ﷺ كان من جهات متعددة ، ومنبع لطفه ورحمته ، وإيثار مادة " آوى " على غيرها فى ظل هذا المقام يؤيد هذا ؛ لأنه إذا كان هذا الفعل " فآوى " من آوى فالإيواء معناه : ضم الشيء إلى آخر ، يقال : آوى إليه فلانا ، أى : ضمه إلى نفسه ، والمعنى : ألم يعلمك طفلا يتيما لا ابا لك فضمك إلى من قام بأمرك [1]. وإذا كان الفعل من أوى له فالمقصود من الإيواء الرحمة ، يقال أوى له . أى : رحمه .

والمقام هنا يتسع لكل هذه المعانى ، وغيرها مما يفيض الله به على عباده ، ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى قد شمل نبيه ﷺ بكل مظاهر الإيواء الحسية والمعنوية .

ثم إن الحكمة من جعل النبى ﷺ يتيما هى الإيواء بعينه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدب نبيه ﷺ بالأحداث ، حتى لا يكون لمخلوق عليه حق ، وحتى يتعلق قلبه من الصغر بمولاه ، ويلظ لسانه دائما بذكر من حفظه ورعاه - ومعنى هذا أن النبى ﷺ محاط بعناية ربانية تملأ عليه جميع أركانه ، وتربية إلهية تعده إعداداً لحمل رسالة الله عز وجل حسيا وباطنيا ، وعقليا ليكون بهذه التربية أفضل خلق الله عز وجل .

ولذا كان هناك فرق بين قولنا القاصر : ألم تكن يتيما وبين قول الله تعالى المعجز : " ألم يجدك يتيما " لما فى الوجود من إشعار الاعتناء به ، والاهتمام بشأنه ، وليس النبى ﷺ بالمُهْمَل ولا المُترك ، وهذا يتناسب مع ما قرره القرآن الكريم قبل ذلك من نفى التوديع والقلى

يضاف إلى ذلك : ما اقتضاه التعبير بالفعل " يجدك " من وقوعه على مفعولين ، وفى هذا إشعار بتعدد جهات التكريم والتشريف ، فمرة صدر الامتنان لشخص النبى ﷺ ومرة حصل الامتنان فى هذه المرحلة التى هى فى أمس الحاجة إلى الرعاية والحفظ . فقد توفى والده وهو جنين ، ثم توفيت أمه ﷺ ، وهو فى كفالة جده عبدالمطلب ، ثم توفى جده فكفله عمه أبوطالب فأحسن تربيته بمشيئة رب العالمين جل فى علاه ،

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة أوى .

فوقع الإحسان والإنعام والتربية وإذا كان من له أب من الأطفال يقول يا أبى ، فإن النبى ﷺ لم يقل – حتى وهو طفل – إلا يا رب ، وهذا هو منتهى التكريم والتشريف لسيدنا رسول الله ﷺ .

وعطف القرآن الكريم على هذا الامتنان العظيم امتنانا آخر أعظم وأفضل فقال : " ووجدك ضالاً فهدى " [١].

وفى هذا العطف إشعار باحتفاء القرآن الكريم بالنبى ﷺ ؛ إذ لم تكتف العناية الربانية بتربية حضرة النبى ﷺ جسديا بل تلقته بالقبول ، والاصطفاء ، وجعلته الطريق الأوحد للتربية الروحية .

وللمفسرين فى تفسير الضلال هنا أقوال كثيرة ، أكثرها لا يتناسب وجلال المقام هنا ، كذهاب بعضهم فى أقواله إلى أن حضرة النبى ﷺ كان كافرا فى أول الأمر ثم هداه الله سبحانه وتعالى وجعله نبيا[٢] – تعالى نبينا ﷺ علواً كبيراً .

وهذا فى رأيى بعيد عن الصواب ؛ لأنه لا يتفق مع عظمة الأنبياء ، وما منحهم الله سبحانه وتعالى من عصمة ، فضلا عما هو معلوم من الدين بالضرورة عن ولايته سبحانه لسيد الأولين والآخرين ﷺ منذ الصغر ، وجمهور العلماء على أن النبى ﷺ ما كفر بالله تعالى لحظة واحدة ، وصدق الله العظيم فقد قال " ما ضل صاحبكم وما غوى "[٣] .

فهذا دليل واضح على بطلان هذا القول .

ولعل نظرتهم فى احتمال هذا القول فى تفسير الضلال راجعة إلى استعمال القرآن الكريم المجازى للفظ الضلال حيث استعير فى الغالب للكفر ، واستعير الهدى للدين .

وعند التأمل نجد أن المقام هنا مع سيد المرسلين ﷺ ، الذى عصمه الله تعالى من كل خطأ .

---

(١) الضحى ٧ .

(٢) ينظر الكشاف للزمخشرى ٢٢٠/٤ ، ومفاتيح الغيب للرازى ٤٧٨/١٦ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٦٥/١٠ ، والمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣٢١/١٦ .

(٣) النجم ٢ .

ومن ثم فإن تفسير الضلال بهذا المعنى لا يليق بجلال المقام من جهة ، كما لا يتناسب مع هذا الامتنان العظيم قبل ذلك فى قوله تعالى :

" ألم يجدك يتيماً فآوى " [1].

وإلا فكيف يؤويه الله عز وجل ، ويضمه إلى رحابه منذ الصغر فى يتمه ، ونسمح لمثل هذا التفسير أن يخطر – مجرد خاطر على بال عاقل .

وما استدل به هؤلاء على هذا التفسير من قوله تعالى : " وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ..."[2].

وقواه تعالى : " نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين " [3].

لا يعنى كفر النبى ﷺ فى صغره ، وإنما يعنى أميته ﷺ التى جعلها الله فيه غاية فى الإعجاز ، وما ادعى النبى ﷺ علما قبل النبوة ، ولا ذهب إلى جامعات الشرق أو الغرب لكن هُدى بالنبوة إلى أحكام الشريعة وهذا هو المراد مما استدل به هؤلاء .

ثم إن التعقيب الذى يفيده العطف فى قوله : " فهدى " جاء بعد تقرير إيواء الله تعالى لنبيه ﷺ ، وعليه يكون المعنى أن الله سبحانه وتعالى هداه فى صغره إلى عبادته كما كان يعبد غيره من المتحنفين الذين كانوا يعبدون الله تعالى على دين سيدنا إبراهيم – على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم السلام – كورقة بن نوفل ، وغيره ، ثم أكرمه الله سبحانه وتعالى – نبينا ﷺ بالرسالة وأعانه عليها ، وعبادته ﷺ فى الغار قبل نزول الوحى ، وحين نزوله أكبر دليل على ذلك .

وقد ذكر العلامة الرازى – رحمه الله – من بين وجوه تفسيره للضلال هنا : أن الضلال بمعنى المحبة ، وصدق الله العظيم فقد قال

---

(١) الضحى ٦ .
(٢) الشورى ٥٢ .
(٣) يوسف ٣ .

حكاية عن إخوة سيدنا يوسف وأبيهم : " قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم "[1] .

أى : فى حبك ليوسف عليه السلام ، وعليه يكون المعنى أنت محب فهديتك إلى الشريعة التى تتقرب بها إلى خدمة المحبوب عز وجل " [2].

وحذف المفعول من قوله " فهدى " يفيد التعميم والشمول وفيه إفادة بأن الله سبحانه وتعالى قد شمل نبيه ﷺ بكل أنواع الهداية ، وكل أنواع المكرمات التى من الممكن أن تقع عليها ، سواء أكانت هداية دلالة ، أم هداية معونة كهدايته ﷺ إلى النبوة ، واحكام الشريعة وهدايته إلى معرفة التجارة ، وهدايته إلى القبلة التى تعلق قلبه بها ، وتقلب بصره من أجلها ، وهدايته فى الهجرة ..... ، وغير ذلك كثير مما هو فوق الحصر والتقدير .

وينتقل القرآن الكريم مع حضرة النبى ﷺ إلى منحة أخرى تضاف إلى تلك المكرمات السابقة فيعطف عليها قوله : " ووجدك عائلا فأغنى " [3].

" وهو عطف على ما يقتضيه الإنكار السابق ، أو على المضارع المنفى بلم داخل فى حكمه ، كأنه قيل : أما وجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى " [4].

فهو تقرير بالعطاء ، وتذكير بما كان من أفضال ، وحث على تدبر ما أفاض من أول أمره إلى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد ﷺ بالخاص الموجود على المترقب الموعود فيزداد قلبه اطمئنانا ، وصدره انشراحاً " [5] وفى هذا من التشريف والإرضاء ما فيه .

---

(١) يوسف ٩٥ .
(٢) مفاتيح الغيب للرازى ١٦ /٤٨٠ .
(٣) الضحى ٨ .
(٤) روح المعانى للألوسى ١٥/٣٨٢ .
(٥) المصدر السابق ١٥/٣٨٠ .

والعائل إما أن يكون من عال يعيل عيلاً وعيلة وعيولا ، ومعيلا إذا افتقر ، وإما أن يكون ذا عيال من عال يعول عولا [١].

وأرى أن ترجيح واحد من هذه المعانى لا يتأتى إلا إذا حدد المراد من الغنى ، والذى جاء تعصيبا على إيجاد هذه الحالة فى حضرة النبى ﷺ .

وأعتقد أن أمر الغنى مع النبى ﷺ بالذات واضح معناه فما كان النبى ﷺ لينظر إلى هذا الغنى الحسى وهو القائل فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى – رحمه الله – عن سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه :

" ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس " [٢].

وهو على صورته الكاملة لم يعط إلا للنبى ﷺ ، وحياته أكبر دليل على ذلك ، ومنهجه فيها معلوم من الدين بالضرورة ، لأن أشهى الطعام فى فم الشبعان لا مذاق له ، وقد كان النبى ﷺ شبعان القلب لا يحرك ذهنه ما يظهر أمامه من زينة الدنيا ؛ لأن غناه فى قلبه ، وذلك أدب أخذه الله تعالى به من قديم ، وصدق الله العظيم فقد قال " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى " [٣].

وفى البخارى عن أنس – رضى الله عنه – قال : ما أعلم النبى ﷺ رأى رغيفا مرققا حتى لحق بربه عز وجل [٤].

وانت واجد أمامك معنى العائل الذى يقصده القرآن الكريم فى ظل تحديد معنى الغنى ، فهو يعنى – أول ما يعنى – مع النبى ﷺ افتقار حضرته ﷺ إلى ربه ومولاه وهذا المعنى هو ما عاش به النبى ﷺ ، ومن أجله جاهد ، وبه وعليه لقى الله رب العالمين .

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة عيل .

(٢) البخارى بشرح الفتح لابن حجر العسقلانى ٢٢٧/١١ باب الغنى غنى النفس دار إحياء التراث العربى ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٣) طه ١٣١ .

(٤) البخارى بشرح الفتح ٢٢٥/١١ .

وأى غنى بعد الرضا ؟ وأى مال بعد هذا العطاء ؟ وأى جاه بعد ولاية مولاه ، والمقام بعد ذلك يتسع لكل عطاء ، فهو من الله سبحانه ، وإلى حبيبه ﷺ .

ولا يخفى عليك أثر الطباق فى الآيات الثلاث " ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى " (١).

فبه تزكو نفس النبى ﷺ ، وترقى فى درجات الكمال الذى أراده الله عز وجل لنبيه ﷺ . فمن اليتم والانفراد إلى ولاية الرحمن ، ومن الحيرة ، وتوزع الخواطر والأفكار إلى الهدى والاطمئنان ، ومن الفقر إلى غنى النفس الذى لا يقدر بمال .

فهى أوصال محبة ، ودروب أنس ينقل القرآن الكريم فيها حضرة النبى ﷺ من فضل إلى فضل ، ومن درجة إلى درجة ، ومع ملاحظة أن انتقال حضرة النبى ﷺ ، وتقلبه فى أفضال الله تعالى بإدراك هذه الأحوال إنما هو على أعلى مستوى فى البشر ، وهذا فضل منحة الله عز وجل لسيد الأولين والآخرين ﷺ ، ولم ، ولن يكون لأحد سواه ﷺ إن الطباق هنا فيه تذكير بزيادة امتنانه عليه ﷺ ليقوى قلبه ، ويهدأ فؤاده ، وليكون زاداً على الطريق يمتثل به فى موالاته عطاء الله عز وجل بالتطبيق بالتطبيق الذى به تكون الأمة مطالبة بهذا التشريع .

وبعد أن أكد القرآن الكريم فضل الله عز وجل على نبيه ﷺ والذى تمثل فى هذه الأحوال الثلاث :

" ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى " (٢).

قابل هذه الأحوال بما يقتضى امتثاله فيها فقال " فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث "(٣).

---

(١) الضحى ٦ : ٨ .
(٢) الضحى ٦ : ٨ .
(٣) الضحى ٩ : ١١ .

والفاء فى قوله تعالى : " فأما اليتيم فلا تقهر " للتعقيب ، وفى التعقيب بعد التذكير إيحاء بما يتطلبه الإيمان من العبد من ضرورة ترجمة الأقوال بالأفعال ، وصياغة المجتمع صياغة إسلامية تؤمن بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبسيدنا رسول الله ﷺ نبيا ورسولا .

كما ينبهنا إلى أن الإيمان بالله عز وجل ليس كلمة تقال ، أو شعاراً يردد ، وإنما هو فى - حقيقته – روح تسمو إلى الله ، وعقل يفكر فى الله ، وجوارح تعمل على رضا الله عز وجل .

ويوم يحدث انفصال بين القول والفعل يضيع كل شيء ، فالتعقيب هنا يتناسب مع المقام تمام المناسبة ، وبخاصة أن صاحب المقام ﷺ هو من طلب القرآن الكريم منا أن نتأسى به ، وأن نقتدى بكل ما يصدر عنه من قول وفعل ، وتقرير ، فكان ﷺ خير موجه ، وأفضل مؤدب وارأف معلم ﷺ .

وساند الفاء فى دلالتها تكرار " أما " ثلاث مرات ليكون فى التعبير بها ذكر ما هو مقدر ، وكأن المعنى – والله أعلم – مهما يكن من شئ فلا تستذل اليتيم ولا تحقره ، ولا تظلمه بتضييع ماله ، ومهما يكن من شئ فلا تزجر السائل " [1].

فالتكرار هنا يتطلب المقام ويستدعيه ، ومن ثم فهو ليس بالتكرار الذى يثقل به المعنى ، ويكثر به اللفظ دون داع ، وإنما هو وجه من وجوه إعجاز الذكر الحكيم ، وضرب من ضروب البيان فيه ، وسبحان من تنزه كلامه عن كل ما يعيب لأنه تنزيل من حكيم حميد .

والنهى عن استذلال اليتيم ، وتضييع حقه " راجع إلى ضعفه وقلة الناصر له ، ومن ثم غلظ فى أمره بتغليظ العقوبة على ظالمة " [2].

وفى هذا حث على إكرام اليتيم ، والعناية بشأنه ؛ لأنه باب من أبواب الخير التى بها تقتحم العقبة ، وعلى قدر ما فيه من حث وحض على إكرامه وعدم إهانته فيه تحذير من مغبة مخالفة ذلك . ومن ثم أثر

---

(١) ينظر البرهان فى توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة بن نصر الكرمانى ١٩٨ تحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٦٧/١٠ .

القرآن الكريم سبك النظم الكريم على طريق النهى عن الحرام دون الأمر بالواجب ليكون فى ذلك توجيه باقتلاع رواسب الجاهلية من النفوس أولا ثم امتلاء القلب بحب المشروع وامتثاله بخضوع وإذعان،ففيه إذن تخلية قبل التحلية ، وهو منهج من مناهج القرآن الكريم يربى بها الله عباده ؛ إذ لا سبيل لشفاء مع وجود ما به كان الداء ، ولا سبيل لرحمة مع عصيان، فكان لا بد من إزالة الداء ليتم - بإذن الله تعالى - الشفاء .

ولهذا السبب قدم القرآن الكريم الشفاء على الرحمة فى قوله تعالى " وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً " [1].

وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم قد نزل أول ما نزل على مجتمع تكثر فيه الأمراض الحسية ، والمعنوية كالظلم ، وأكل حقوق الناس ، وعلى رأسها أكل مال اليتيم ، واستعباد الإنسان ، وغير ذلك من الأمراض القاتلة ، فجاء الإسلام ليشفى أولا هذه الأمراض ؛ وذلك باتباع منهج السماء ثم بعد ذلك تتنزل رحمات الله عز وجل لتقى الناس من أى شر قادم .

وسورة الضحى – محل البحث – كانت من أول ما نزل بمكة حيث كانت بدايات الدعوة الإسلامية مع هذا المجتمع الذى عانى كثيرا من وجود هذه الداءات ، فأراد القرآن الكريم أن يوجه النبى ﷺ إلى ما ينبغى أن يكون مع اليتيم والسائل لتتوجه الأمة من بعده إلى خلع كل ما يعوق نهوضها السامى من أمراض فشت فى عصور البداءة والغارات .

وللعلماء فى تحديد معنى السائل هنا قولان :

أحدهما : أن المراد من السائل هنا : المستجدى الطالب لشئ من الدنيا .

الآخر : قاله سفيان – رحمه الله – المراد من السائل : سائل العلم والدين [2].

---

(١) الإسراء ٨٣ .

(٢) الكشاف للزمخشرى ٢٢٠/٤ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٦٧/١٠ ، ومفاتيح الغيب للرازى ٤٨٤/١٦ ، وروح المعانى للألوسي ٣٨٣/١٥ .

وعند التأمل نجد أن حمل السائل هنا على سؤال العلم والدين أولى بصاحب المقام ﷺ فهو المعلم ، وهو المربى بأدب الله عز وجل ، وهذا لا يمنع من دخول كل مسألة تحت ذلك بالتبع ، لأن سؤال العلم والدين أولى إذ به تعرف الحقوق وتتحدد المطالب ، وتترسى القواعد ليعرف كل ذى حق حقه .

ولسائل أن يقول : لماذا عبر مع اليتيم بالنهى عن قهره ، ومع السائل بالنهى عن نهره ؟

والجواب : أن النظم الكريم قد جاء على طريق حسن الالتزام ، أو لزوم ما لا يلزم . وهو : أن يجئ قبل عرف الروى ، أو ما فى معناه من الفاصلة ما ليس بلازم فى مذهب السجع " [1].

وهذا الفن فيه من التكلف ما فيه عند إتيان البشر إياه ، لكن فى القرآن الكريم من الإعجاز بمكان ؛ ذلك لأن الاهتمام بالمعنى فى القرآن الكريم يسبق اللفظ والجرس ، فالمعنى هو الذى يقود اللفظ ليأتي على ما جاء عليه بكل دقة وإحكام لدرجة تجعل استبداله بغيره – مما يتوهم فيه أداء معناه – ضربا من المستحيل – وسبحان من هذا كلامه .

وعند التأمل نجد أن الهاء قد لزمت قبل الراء فى قوله تعالى "تقهر " و " تنهر " ، وفى هاتين الفاصلتين مع الالتزام سر بلاغى يجعل من المستحيل استبدال أحدهما مكان الآخر ؛ " لأن النكتة فى ترجيح مجيئها على ما جاءتا عليه أن اليتيم مأمور بأدبه ، واقل ما يؤدب به الانتهار ، فلا يجوز أن ينهى عن انتهاره ، وإنما الذى ينهى عنه قهره وغلبته لانكساره باليتم ، فمن هاهنا ترجح مجئ كل قرينة على ما جاءت عليه ، ولم يجز التبديل " [2].

وأنت تلاحظ أن النظم الكريم :

" فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر " قد بنى على تقديم المفعول على عامله ، وليس الغرض من تقديمه هنا هو مجرد الاقتصار على رعاية الفاصلة كما ذهب البلاغيون ، وإنما تمتد نظرة القرآن الكريم إلى شئ أعمق من هذا الجرس الظاهر الذى ينعم به الذكر الحكيم

---

(١) بغية الإيضاح للشيخ عبدالمتعال الصعيدى ١٠٣/٤ .

(٢) إعراب القرآن الكريم لمحي الدين درويش ٥١٣/١٠ .

لترطب به الآذان قبل أن تطمئن به القلوب ، ومن ثم فإن بلاغة التقديم هنا يكمن فى التنبيه على خطورة هذا النهى والتحذير من مغبة مخالفة ، وأن الاهتمام باليتيم والسائل أمر يعتنى به القرآن الكريم عناية فائقة ، لما يترتب على ذلك من شيوع الحق والعدل والخير فى المجتمع ونزع الأحقاد والضغائن من الصدور والقلوب فسبحانه من إله عليم حكيم .

فالتقديم هنا من مقتضيات المقام ، ونداءات المعنى ليستقر فى العقول والقلوب هذا المعنى العظـيم الذى امتثله صاحب الخلق العظيم ﷺ ، فكان نسيجا من خلقه وشمائله ﷺ وعلى الأمة أن تهتدى بهديه لتتحقق الأسوة الحسنة التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا " (١).

وقدم القرآن الكريم حق اليتيم على حق السائل لأهميته ؛ إذ إنه بحاجة إلى نصرة قبل أن يكون بحاجة إلى مال ، أما السائل فقد يستطيع مواجهة معترك الحياة بنفسه ، والحفاظ على ماله ، ورد ظلم الغير له . هذا بالإضافة إلى أن التقديم هنا من نداءات المقام ؛ " لأن إكرام اليتيم ، والنهى عن قهره ، وكسر خاطره وإذلاله ، ثم إغناء السائل مع الرفق به من أهم إيحاءات الواقع يومئذ فى البيئة الجاحدة المتكالبة التى لا ترعى حق ضعيف غير قادر على حماية حقه بنفسه " (٢).

والتعبير بالفعل المضارع يفيد التجدد والحدوث ، وهذا يعنى أن النهى عن إذلال اليتيم وهضم حقه ، وزجر السائل أمر لا بد من مراعاته دوما يتجدد الحث عليه ، والتخدير من مغبته مع كل يتيم ، ورؤية كل سائل . وفى هذا حث وحض على ما به يخلص المجتمع من شوائبه التى من شأنها تكدير صفوة ، والعبث بأمنه وسلامته .

وبعد أن أكد القرآن الكريم على حق اليتيم والسائل عطف عليه ما هو أعم من ذلك فقال : " وأما بنعمة ربك فحدث " (٣).

---

(١) الأحزاب ٢١ .
(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب ٢٩٢٧/٦ .
(٣) الضحى ١١ .

والعطف هنا من قبيل عطف العام على الخاص ، لأن الحديث بالنعمة يعنى : شكرها ، وشكرها يعنى : ترجمتها واقعا فى حياة الناس . وبذا يكون القرآن الكريم قد فتح المجال لكل عطاء ، وهيأ النفوس للبذل والسخاء ، كل فى مجاه ، وعلى قدر استطاعته ، ليكون الواقع نفسه متحدثا بأفضال الله تعالى ، وينعم الكون بهذا التفاعل الإيجابى الذى من شأنه الأخذ بيد الأمة إلى ما كانت عليه من تقدم ورفعة حين كان موقعها من الدين فى حيز التطبيق .

والنعمة هى الحالة الحسنة ، وهى هنا للجنس ، تقال للقليل والكثير[1].

والمقام وإن كان يتسع لكل النعم إلا أن نعمة الإسلام والرسالة أقر بها وأولاها بالمقام الأول فهى من أجل النعم وأعظمها ؛ لأن اصطفاء النبى ﷺ لم يكن بقدره ولا قدر والديه ، وإنما كان بقدر الله واختياره .

وإفراد النعمة وراءه سر بلاغى هو : الإشعار بعظمتها ، وجلالها ، وأنها وإن كانت نعمة واحدة فى اللفظ فهى فى الحقيقة نعم تتعدى الحصر والتقدير ، فالنعمة من الله عز وجل نعم ، والفضل إفضال .

وإضافتها إلى لفظ " رب " فى قوله : " بنعمة ربك " يوحى بتمامها وكمالها ؛ لأنها ممن بيده الأمر كله ، وكل ما يضاف إلى العظيم عظيم .

وفى الإضافة أيضا إشعار بأننا عرفنا الله عز وجل ربا قبل أن نعرفه إلها فقد تولانا ربنا عز وجل ، وتولى الكون كله خلقا وإيجادا وتربية ، وتدبيرا ، ولطفا ، ورزقا ، ورعاية ، وحفظا ، وكل ما تقتضيه ربوبية الحق للخلق .

وفى إضافة لفظ " رب " إلى ضمير المخاطب ﷺ تشريف وتكريم لحضرته ﷺ ، ومع أن المعنى هنا عام إلى أن القرآن الكريم أراد

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى مادة تسع .

أن يفوز النبى ﷺ بشرف الخطاب ، وفى هذا إيحاء بمكانته ﷺ عند خالقه عز وجل .

والفاء فى قوله " فحدث " للتعقيب ، وفى التعقيب تنبيه على ما تقتضيه نعم الله عز وجل من شكر فوري به تزداد النعم ،ويفيض الخير ، ويوصل العطاء ، وصدق الله العظيم فقد قال.

" وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد "[1] .

وآثر القرآن الكريم التعبير بقوله : " فحدث " دون ذلك فخبر : لأنه يتناسب مع المقام " وليكون ذكر النعمة حديثا عند حضرة النبى ﷺ لا ينساه ، ويوجده ساعة بعد ساعة "[2] وفى ذكر نعم الله عز وجل ذكر له سبحانه .

وفى هذا إيحاء بأن كل نعمة من الله عز وجل وراءها قصة تحكى ، وحديثا يتلى لا لإرادة الرياء والسمعة وإنما من أجل الخضوع والإذعان ، ومعرفة قدر امتنان الرحمن ، وفيض الوهاب .

هذا وقد ذهب العلماء إلى أن تقديم حق اليتيم والسائل على حق الله تعالى يرجع إلى أن الله سبحانه وتعالى غنى ، وهما محتاجان ، وتقديم حق المحتاج أولى ، أو أنه تعالى وضع فى خطهما الفعل ، ورضى لنفسه بالقول " [3].

وما ذكره العلماء يحتاج إلى نظر ، لأن حق الله سبحانه وتعالى مقدم على كل الحقوق ، فكل حق مهما عظم حقير إذا ما وضع إزاء حق الله تعالى ، ويمكن توجيه ذلك التقديم بأن حق اليتيم والسائل هما فى الحقيقة حق الله عز وجل ، فما أكرم يتيم إلا من أجله تعالى ، وما أرفق بسائل إلا طاعة له عز وجل ، ثم إنهما داخلان فى التحدث بنعمة الله عز وجل ، وصدق الله العظيم فقد قال : " قل إن صلاتي ونسكى ومحياى

---

(١) إبراهيم ٧ .

(٢) ينظر مفاتيح الغيب للرازى ٤٨٦/١٦ ، وروح المعانى للألوسي ٣٨٣/١٥ .

(٣) ينظر الكشاف للزمخشرى ٢٢٠/٤ ، ومفاتيح الغيب للرازى ٤٨٦/١٦ ، وروح المعانى للألوسي ٣٨٤/١٥ .

ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين "[1] .

إذن ما ذهب إليه العلماء لا يتناسب مع جلال الله عز وجل كما لا يتناسب مع جلال ذلك المقام العظيم .

يضاف إلى ذلك أن النظم الكريم قد بنى على اللف والنشر ، وهو : ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه " [2].

ومن ثم فقد جعل القرآن الكريم عدم قهر اليتيم فى مقابلة إيوائه تعالى له عليه الصلاة والسلام فى يتمه ، وعدم زجر السائل طالب العلم والمتعلم منه فى مقابل هدايته له ﷺ والتحدث بالنعمة فى مقابلة الغنى [3].

وبلاغة التعبير بهذا الفن تكمن فى هذا التأمل الذى يمليه على النفس لتكون على بصيرة من أمرها فتذكر حالها فى الماضى ، وننظر إلى ما يقتضى منها ذلك الماضى الذى كان لله عز وجل فيه فيض وعطاء فيوجهه ذلك ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإغناء كل سائل ، والأخذ بيد كل حيران . وهذا هو مقتضى الشكر والتحدث بنعمة الله عز وجل .

ولا يخفى علينا بعد ذلك هذا الجرس العالى الذى نشأ من رعاية الفواصل ، والذى بنى فى بداية الأمر على الألف المقصورة التى فتحت كل أبواب الرجاء أمام حضرة النبى ﷺ .

وكأن فطرة اللغة شاركت فى هذا العطاء ، وأرادت من الألف المفتوح ما قبلها ذلك المدد الموصول بالله عز وجل ليجد القلب قبل اللسان وصلا ، وراحة ، وأنساً ، فلا تكاد تنتهى فاصلة بعطائها حتى يدخل بها القرآن الكريم إلى أخرى أكثر عطاء ، وأعظم بهاء لينسج كل هذا العطاء فى فواصل من در مسبوكة بمداد الود والقرب .

---

(١) الأنعام ١٦١ ، ١٦٢ .
(٢) بغية الإيضاح للشيخ عبدالمتعال الصعيدى ٣٤/٤ .
(٣) روح المعانى للألوسى ٣٨٤/١٥ .

تأمل ما قاله الرمان – رحمه الله – فى محاولة صادقة لنفى السجع المنهى عنه فى القرآن الكريم ، وتفريقه بين السجع وبين رعاية الفواصل التى حظى بها الذكر الحكيم فيقول : " السجع غير الفواصل ، فالفواصل حروف متشاكلة فى المقطع ، توجب حسن إفهام المعانى ، والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ؛ لأنها أى الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة ... وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ؛ لأنها طريق إلى إفهام المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها ..... " (١).

فالرمانى – رحمه الله – ينظر إلى المعنى قبل أن ينظر إلى الجرس ، وهذا حق القرآن الكريم ، ولا مانع أبدا من أن يقود الجرس إلى المعنى ، ومن ثم كان لكل سورة من سور القرآن الكريم نفس خاص تتميز به من ناحية الهدوء أو الشدة ، أو الترغيب أو الترهيب ، أو الوعد أو الوعيد حسبما يتطلب مقام كل سورة ، وما تتعرض له من موضوعات .

تأمل كيف هز القسم بالضحى أرجاء الدنيا ، وخيب آمال المشركين فيما اعتقدوه بشأن حضرة النبى ﷺ ، وذلك حين جاء المقسم عليه فدلت فاصلته على ما كان فى الضحى من صفاء وضياء فتناسب مع ما رجته نفس النبى ﷺ وتمنت تحقيقه ، ثم توالت الفواصل فى تعبير وئيد الخطوات ، شجى الإيقاع يتناسب فى عظمته وطراوته مع صاحب هذا المقام ﷺ .

تأمل همس الحروف وتجانسها فيه تجدها سفيرا قويا أظهر الله به المعنى فى ثوب متسق تخضع له الحواس الظاهرة كما يخضع له العقل والقلب .

وأسأل الله عز وجل أن يحسن ختاما كما أحسن ابتداء ، وأن يهبنا جميعا إلى حضرة النبى ﷺ ليسقينا من الكوثر شربة لا نظمأ بعدها أبدا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) ينظر النكت فى إعجاز القرآن الكريم للرمانى ٩٧ ، ٩٨ ضمن ثلاث رسائل فى القرآن الكريم .

# الخـــاتـــمـــة

الحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من كانت الضحى فيضا من عطاياه ، فسبحان من أكرمه بها ووالاه .

وبعـــــد

فقد كانت الرحلة المباركة مع الضحى فى تكريم وتشريف المصطفى ﷺ مليئة بسحائب الرحمة ، ونسائم الود والقرب ، فهى بعث لروح النبى ﷺ ، ومن ثم كانت له خاصة ، وهو لها تكريما وتشريفا ووصلا من الله رب العالمين .

وكان هذا القسم بالضحى موحيا بما تحمله نفسه الشريفة من صفاء وعفو وتسامح نال به كل الرضا ممن حباه واجتباه .

كما يلاحظ أن السورة الكريمة قد آثرت فى سرد أفضال النبى ﷺ التعبير بلفظ " رب " مضافا إلى ضمير ﷺ ، وهذا التعبير نرى به مكانة النبى ﷺ عند الله عز وجل ؛ لأنه يفيض بكل معانى الحنان ، واللطف والود ، وكل ما نقتضيه ربوبية الحق لخير الخلق ﷺ .

وكأن القرآن الكريم يريد أن يقول : لما كان النبى ﷺ محبا للتكليف آثر التعبير معه بلفظ " رب " دون لفظ الجلالة ليفيد بأنه ﷺ موصول دائما بعطاء الربوبية .

وفى السورة الكريمة أيضا فتح لمجال العطاء الغير محدود فهو عطاء ممدود لا مقطوع ولا ممنوع يتناسب مع عظمة سيد الخلق ﷺ .

" ولسوف يعطيك ربك فترضى "

فاللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد النور الذاتي والسر السارى فى جميع الأسماء والصفات ، وعلى آله وصحبه وسلم .

**د / مالك حسين الدسوقى النعير**

**عضو هيئة التدريس بكلية اللغة العربية بالقاهرة**

# ثبت المصادر والمراجع


- أسلوب القسم فى القرآن الكريم ، د / إبراهيم عبدالحميد التلب ، بحث منشور فى مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة ، العدد الخامس ١٤٠٧ – ١٩٨٧ .
- إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحى الدين درويش ، دار ابن كثير ، اليمامة ، سوريا ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- البرهان فى توجيه متشابه القرآن الكريم لمحمود بن حمزة بن نصر الكرمانى ، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- البرهان فى علوم القرآن الكريم للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، الطبعة الثانية بدون تاريخ .
- بغية الإيضاح للشيخ عبدالمتعال الصعيدي ، المطبعة النموذجية ، بدون تاريخ .
- تفسير البغوى للإمام محمد بن الحسين بن مسعود الفراء البغوى ، تحقيق خالد عبدالرحمن ، ومروان سوار ، دار المعربة بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- التفسير البيانى للقرآن الكريم ، د / عائشة عبدالرحمن ، دار المعرفة .
- تفسير روح البيان لإسماعيل حقى البرسوى ، دار الفكر بدون تاريخ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، دار الجيل بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- تفسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لعبدالرحمن ناصر السعدى ، تحقيق محمد زهرى النجار ، السعودية بدون تاريخ .
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ م .
- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للالوسي ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ -

١٩٩٤ م ، ودار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ، دار أبى حيان ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .
- الفـروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ، تحقيق حسام الدين القدسى ، مكتبة القدس ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ، دار الشروق ، الطبعة الشرعية السادسة عشرة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى ، دار المعرفة ، بدون تاريخ .
- لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى هامش تفسير الجلالين ، دار الجيل ، الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .
- لسان العرب لابن منظور ، الهيئة المصرية العامة ، بدون تاريخ .
- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ، تحقيق المجلس العلمى بتاروادنت ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
- مع القرآن الكريم د / أحمد محمد الحوفى ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- مفاتيح الغيب للرازى ، دار الغد العربى ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م .
- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى تحقيق سيد كيلانى ، دار المعرفة ، بدون تاريخ .
- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ، الهند الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- النكت فى إعجاز القرآن الكريم للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم .

**وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم**